كلية: الآداب

القسم أو الفرع: اللغة العربية

المرحلة: الدراسات العليا/ الدكتوراه

أستاذ المادة: أ.د.ارميض مطر حمد

اسم المادة باللغة العربية: الخطاب النقدي والبلاغي

اسم المادة باللغة الإنكليزية:

اسم المحاضرة الثامنة باللغة العربية: الرجوع والإستثناء

اسم المحاضرة الثامنة باللغة الإنكليزية:

محتوى المحاضرة الثامنة

الرجوع والإستثناء

ومن إشكاليات فن (الرجوع) هو تداخله مع (الاستثناء), الأمر الذي دفع البيانيين إلى دراسة هذه الإشكالية ووضع حدود لهذه المصطلحات, ويطالعنا ابن المعتز الذي يعدُ أول من أشار إلى هذا الفن وآثر تسميتة: (تأكيد المدح بما يشبه الذم), وبقي هذا المفهوم سائدًا عن طريق الشواهد التي

اعتمدها البلاغيون, وهي في حقيقتها تشير إلى مفهوم المدح بما يشبه الذم, منها قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أنَ سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[1]

فالمتأمل في هذا الشاهد يدرك أنَ هناك استثناء, ولكنه في حقيقته ينطوي على معنى أبعد من ذلك, فالنابغة بعد أن نفي العيب عن قومه, تبادر إلى ذهن المتلقي أنه سيذمهم, ولكنه فعل العكس, فقال: (غير أنَ سيوفهم...) فأبان أنَ سيوفهم أصابها الثلم لكثرة قراع كتائب الأعداء, وهي صفة مدح.

ويعلق د. محمد عبد المطلب قائلًا: " ويلاحظ في هذا الشكل وجود علاقة جامعة بين الصفتين, كما أنَ حضور المتلقي إلى رحاب الصياغة أمر ضروري لإنتاج البنية البلاغية؛ لأنَه بمتابعته للصياغة يتوهم بداية أنَ الصفة الثانية صف ذم, فاذا بها تفاجئه بانتهائها إلى الجملة الاولى المادحة, وبالنظر في إنتاجية البنية داخليًا نلاحظ أنَها تدخل منطقة (الدليل) العقلي, إذ إنَ المبدع استبدل على (عدم العيب) بأنَ (ثبوت العيوب) مرتبط بكون فلول السيف عيبًا, وهو محال, كما أنَها تدخل منطقة (الإيهام)؛ لأنَ الأصل في الإستثناء (الإتصال), فإذا جاءت الصياغة بأداة الإستثناء تهيأت لإخراج ما بعدها مما قبلها, فإذا بما بعدها ينتمي لما قبلها, وهنا يتحقق نوع من (التراكم) المدحي, بتتابع صفات المدح في العمق, وإن أوهم السطح بالمخالفة ".[2]إلا أنَ هذا المسمى قد اتخذ عنوانًا آخر عند أبي هلال العسكري, فأطلق عليه الإستثناء, وجعلة على ضربين:

الضرب الاول: هو أن تأتي معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثني بغيره, فتكون الزيادة التي قصدتها, والتوكيد الذي توخيته

الضب الثاني: استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان[3]

---

[1] ينظر البديع: ١٥٧, ديوان النابغة: ٤٤
[2] البلاغة العربية – قراءة اخرى: ٣٨٩ – ٣٩٠
[3] ينظر كتاب الصناعتين: ٣١٩ – ٣٢٠

واستشهد للضرب الثاني بقول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي[٤]

علمًا أنَ هذا الشاهد داخل في باب الإطناب بجامع الإحتراس, بغية دفع توهم المتلقي من أنَ الدعاء بدوام سقوط المطر, سيكون سببًا لدمار البيوت وخرابها, إلا أنهَ احترس (غير مفسدها), أي أنَ الهطول يكون بمقدار لا يكون سببًا للضرر. ولعل السبب في هذا التداخل, هو الاستدراك الحاصل في الإحتراس, والأمر نفسه للاستثناء هو الآخر قائم على استثناء شيء, بغية لفت نظر المتلقي إلى المعنى المقصود ،وتابعه في هذا المسمى ابن رشيق في عمدته, فقد اعتمد هذين الشاهدين اللذين استشهد بهما ابن المعتز[٥], إلا أنَ أسامة بن منقذ, فقد أفرد بابًا سماه (باب الرجوع والإستثناء).[٦]

أما السكاكي, فقد اعتمد مسمى ابن المعتز نفسه, وأورد له شاهدًا واحدًا, هو قول بديع الزمان الهمذاني:

هو البدر إلا أنَه البحر زاخر سوى أنَه الضرغام لكنه الوبل[٧]

اما ابن أبي الإصبع المصري في كتابه بديع القرآن, فقد جعل لكل فن بابًا خاصًا, وفرق بين هذين المصطلحين, وأورد لكل منهما شواهده الخاصة به.[٨]

أما القزويني, فقد آثر تسمية (تأكيد المد بما يشبه الذم وعكسه) ،وأبان عن ضروب كل صنف منهما, وذكر شواهد لهذا الفن.[٩]

---

٤ ينظر كتاب الصناعتين: ٣٢٠, ديوان طرفة: ٦٢
٥ ينظر العمدة: ٤٨/٢
٦ ينظر البديع في نقد الشعر: ١٢٠
٧ ينظر مفتاح العلوم: ٦٦٦, ورد هذا البيت في حدائق السحر: ١٣١, ومن الايضاح: ٣٩٩
٨ ينظر بديع القرآن: ٧٨ , ١٧١
٩ ينظر الايضاح: ٣٩٧ , ٣٩٩

الملاحظ أنَ الإستثناء يحمل في طياته رجوعًا واستدراكًا, هذا ما سنلاحظه في تأملاتنا لشواهد من آي الذكر الحكيم.

من ذلك قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ).[١٠]

المتأمل في سياق الآيتين المباركتين يجد تضافرًا سياقيًا بين الرجوع والاستثناء, فقد ساهما في بيان حقيقة خلق الله لهذا الإنسان الذي أحسن شكله ومنحه صفات لا تمتلكها المخلوقات الأخرى من عقل, ونطق, وقدرة, على التمييز والتدبر, فضلًا عن حسن الصورة وكمال الهيأة, ليعود الباري ـ جل ثناؤه ـ ويبيَن عاقبة أمر هذا الإنسان عندما جحد تلك النعم ظاهرها وباطنها, وأنكر تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية, فيعيده الخالق أسفل من سفل خلقًا وتركيبًا, فيؤول ذلك الجمال إلى شيبة وانحناء وتخاذل في القيام والمشي[١١], فضلًا عن الضعف الذي يفقد فيه الذاكرة والعلم, ويمنعه من أداء واجباته على الوجه الأكمل تجاه الله[١٢]؛ لأنَ الله لم يمنحه الإرادة والعزيمة, بخلاف المؤمنين الثابتين على دينهم منذ صغرهم إلى ؟أن كبروا وتقادم به الزمن, فهم قادرون على الإيفاء بالعبادات التي كانوا يقيمونها. بدليل قوله: (إلا الذين آمنوا...) هنا يكمن الرجوع في تضافره مع الاستثناء؛ لأنَ هذه الطائفة آثرت إقامة العبادات ولم تجحد نعم الله وكرم منه عليهم من حسن صورة, وعقل, وتدبر, فضلًا عن تمييز الحق من الباطل, والجمع بين الإيمان والعمل الصالح, هؤلاء لهم ثواب دائم غير منقطع ومأواهم الجنة دار المتقين.

وقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ).[١٣]

---

[١٠] سورة التين: ٤ ـ ٦

[١١] ينظر الكشاف: ٧٧٩/٤

[١٢] ينظر درة التنزيل وغرة التأويل: ١٣٦٢/١ ـ ١٣٦٣

[١٣] سورة البقرة: ٨ ـ ٩

يكمن التضافر السياقي في الرجوع والإستثناء, إذ إنَ الرجوع قد تجسد في نقض فعل المنافقين الذين يدعون الإيمان قولًا لا فعلًا, فهم يظهرون شيئًا ويبطون شيئًا آخر, ظنا منهم أنَهم يخادعون الله, وأنَ ما يفعلونه نافعًا لهم, فجاء الرد: (وما هم بمؤمنين), ليؤكد أنَ خداعهم راجع عليهم, ومآل خبثهم يعود عليهم من دون أن يشعروا.

ومن دقيق التعبير القرآني قوله: (وما هم بمؤمنين) ولم يقل: (وما آمنوا) كي يطابق قوله: (ومن يقول آمنا) ولكن الخطاب القرآني عدل عن الفعل إلى الاسم, لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين, وأكده بـ (الباء) للمبالغة في نفي الإيمان عنهم.[١٤]

ويرى الزركشي (ت ٧٩٤هـ) أنَ مجيء الاسمية في " الرد عليهم بقوله: (وما هم بمؤمنين)؛ لأنَه ابلغ في نفي الفعل, إذ يقتضي إخراج أنفسهم وذواتهم عن أن يكونوا طائفة من طوائف المؤمنين, وينطوي تحته على سبيل القطع نفي ما أثبتوا لأنفسهم من الدعوة الكاذبة على طريقة (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا)[١٥], مبالغة في تكذيبهم, لذلك أجيبوا بالباء ".[١٦]

وقوله: (ومن الناس), فمن للتبعيض, جاءت كي تتناغم مع من قال بلسانه وليس بقلبه, وأتت لتؤكد أنَ المخادعة ليس من عموم الناس بل من طائفة أبانت ظاهرًا مختلفًا عما تبطن, فضلًا عن ذلك اختيار كلمة (الناس) وعمومها, من أجل غاية مقصودة, وهي عدم تعيين المنافقين وتحديدهم, بغية إغرائهم بالإقلاع عن نفاقهم, وفي ذلك توقع بأنَهم قد ينصرفوا عن غبيَهم.[١٧]

وأبان العلوي في طرازه عن دلالة قوله: (من يقول): " إنَ كل ما كان قولًا باللسان من غير اعتقاد في القلب فهو خداع لا محالة, وهذه هي حالتهم فما صدر منهم من الإيمان باللسان ".[١٨]

[١٤] ينظر صفوة التفاسير: ٣١/١
[١٥] سورة المائدة: ٣٧
[١٦] البرهان في علوم القرآن: ٧/٤
[١٧] ينظر من بلاغة القرآن: ٢٩
[١٨] الطراز: ١٧٠/٣

أضف إلى ذلك أنَ الخطاب القرآني قد أبان عن دلالة (القول) في قوله: (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ).[19] فكلمة (يقولون) في سياق الآية توحي بان إيمانهم لم " يتعد أفواههم, وأجري على ألسنتهم الإيمان بصيغة الماضي, ليوهموا سامعيهم أنَهم قد دخلوا في الإيمان منذ زمن بعيد, زيادة منهم في التمويه والخداع, وخص الإيمان بالله وباليوم الآخر؛ لأنَ الإيمان بهما بجميع كل ما يجب الإيمان به ".[20]

وقوله تعالى: (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا).[21]

مما لا شك فيه أن فاعلية التضافر السياقي تتبلور في تكاتف الرجوع مع الاستثناء, إذ إنَ بؤرة السياق القرآني تتمحور في نقض الجمع بين الأختين؛ لأنَ الإسلام حرم الجمع بينهما في النكاح, فجاء الاستثناء ليبيَن عفو الإسلام عما كان في الجاهلية, وآية ذلك تذييل الآية بقوله: (إنَ الله كان غفورًا رحيمًا), فجاءت صفتا العفو والرحمة متناغمتين مع مسألة الصفح عمن تعرض للجمع في زمن سبق الإسلام, فضلًا عن صيغة الماضي (كان), لتؤكد زمن العفو, فضلًا عن التناغم مع قوله: (إلا ما قد سلف).

وقد أمر الرسول الكريم (ﷺ) تحريم هذا الجمع, فقد قيل: " إنَ أم حبيبة قالت يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان, قال: (أو تحبين ذلك؟) قلت: نعم لست بمخلية وأحب من شاركني في خير أختي, فقال النبي (ﷺ): (إنَ ذلك لا يحل لي)..."[22]

يبدو أنَ النهي عن الجمع بين الأختين ينطوي على معالجات اجتماعية جمة, نذكر منها:

١- إنَ الزواج الذي أقرته الشريعة الاسلامية قائم على خلق جو أسري يسوده التفاهم وتتخلله المودة والرحمة.

٢- نهى الإسلام عن الجمع؛ من أجل تفادي المشاكل والمشاحنات.

---

[19] سورة الفتح: ١١
[20] من بلاغة القرآن: ٢٩
[21] سورة النساء: ٢٣
[22] صحيح البخاري: ١٩٦١/٥, رقم الحديث (٤٨١٣)

٣- حرص الاسلام على تقوية أواصر صلة الرحم, وهو أصل بنية المجتمع وقوته, وهذا الجمع سيكون سببًا في القطيعة.

٤- خشية أن يكون الجمع مثارًا للغيرة بين الأختين, وهذه مسألة فطرية؛ لأنَ الزوجة تحاول جاهدة احتكار زوجها عاطفيًا واجتماعيًا, وهذا الجمع سيؤدي إلى إشعال الغيرة والبغض.

وقوله تعالى: (وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا...).[٢٣]

الملاحظ أنَ السياق القرآني قد نص على تشريع حكم بموجبه أخذ كفارة من القاتل من غير قصد, فكفارته إعتاق عبد ودفع ودية للورثة؛ لأنَ إطلاق هذا الانسان من العبودية يعد إحياء لهذه النفس, وكذلك دفع الدية من أجل ديمومة حياة للورثة واستمراريتها؛ لأنَ المعيل قد انقطع عن العمل بسبب وفاته, لذا جاء الرجوع متضافرًا مع الاستثناء, ليؤكد أنَ هذا التشريع مشروط بعفو الورثة عن القاتل وإسقاط الدية عنه, لذلك جاء الرجوع لنقض تحقق الشروط ما لم يكن هناك عفو من الورثة.

فالملاحظ أنَ في سياق الآية تخصيص (مؤمنا)؛ لأنَّ هناك مؤمنًا ثابتًا على إيمانه وآخر عدوًا، بدليل قوله تعالى: (فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ)[٢٤], وكذلك لفظه (خطأ), للإشارة إلى أنَ هناك قتلًا عمدًا, فلكل قتل كفارته وثوابته, إذ قال تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا).[٢٥]

ولا بد لنا أنَ نقف عند لفظة (رقبة), ونتساءل لم خصص الرقبة ولم يقل عبدًا, ينطوي هذا الإختيار على نكتة بلاغية تشير إلى جمالية المجاز القرآني القائم على ذكر الجزء المراد به الكل؛ لأنَ القيد إنَما يكون في الرقبة أو في الساعدين أو القدمين, وهذا القيد في الرقبة يشكل عبئًا ثقيلًا على الإنسان, وفي حال رفع هذا القيد عن الإنسان فإنه ـلامحالة ـ يعيش حالة مغايرة لحالته

---

[٢٣] سورة النساء: ٩٢
[٢٤] سورة النساء: ٩٢
[٢٥] سورة النساء: ٩٣

السابقة, بدليل أنَ الخطاب القرآني قد ذكر الرقبة في مواطن عدة.[٢٦] وهذا الإطلاق يعد اعادة حياة الانسان بآد فقد اخر.

وقوله تعالى: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا).[٢٧]

تكمن فاعلية الرجوع في نقض الكلام السابق وإثبات ما هو أصح وأولى؛ لأنَ "المتعارف في نفي الشيء أن يراد إثبات نقيضه ".[٢٨] وهذا ما نلمسه في هذه الآية المباركة, إذ إنَ تضافر الرجوع مع الاستثناء أكد نفي الخير فيما يسره القوم وما يخبؤونه من دسائس أو أمور دنيوية لا تمت إلى الخير بصلة, لذلك جاء الرد في أنَ الخير يكمن في ثلاثة أشياء: الأمر بالصدقة, أو الأمر بالمعروف, أو الصلح بين الناس.

بيَن الرازي مزايا كل عمل من هذه الأعمال الثلاثة قائلًا: " وإنَما ذكر الله هذه الأقسام الثلاثة؛ ذلك لأنَ عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة أو بدفع الضرر, أما إيصال الخير فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية وهو إعطاء المال, وإليه الإشارة بقوله: (إلا من أمر بصدقة), وإما أن يكون من الخيرات الروحانية وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم, أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة, ومجموعها عبارة عن الأمر بالمعروف, وإليه الاشارة بقوله: (أو معروف), أما إزالة الضرر فإليها الإشارة بقوله: (أو إصلاح بين الناس), فثبت أنَ مجامع الخيرات مذكور في هذه الآية ".[٢٩]

---

[٢٦] سورة المائدة: ٨٩, المجادلة: ٣, البلد: ١٣
[٢٧] سورة النساء: ١١٤
[٢٨] التحرير والتنوير: ١٩٩/٥
[٢٩] التفسير الكبير: ٢١٨/١١

وما تم ملاحظته في سياق الآية, هو اختيار مفردة (النجوى), ولم يقل دعواهم؛ لأنَ النجوى لا تكون إلا سرًا, وهذا فعل المنافقين, وهي مبعث على الريبة, إذ يتخللها الدس وكل ما هو شر, لذلك نهى القرآن عنها في قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ).[٣٠]

وقوله تعالى: (إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ).[٣١]

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال, لم خص هذه الأمور الثلاثة من دون غيرها وإخرجها من الكثير من نجواهم, لعل السبب يعود إلى الإحتراس؛ لأنَ الخطاب القرآني أخرجها من دائرة التناجي, لذلك قال: (كثيرًا), بمعنى أنَ القليل من نجواهم الثابت له الخير, اما كثيرة فلا خير فيه, لذلك عمد إلى ذكر هذه الأفعال الثلاثة؛ لأنَها لو " لم تذكر لدخلت في القليل من نجواهم الثابت له الخير, فلما ذكرت بطريق الاستثناء علمنا أنَ نظم الكلام جرى على أسلوب بديع فأخرج ما فيه الخير من نجواهم ابتداء بمفهوم الصفة, ثم أريد الإهتمام ببعض هذا القليل من نجواهم ".[٣٢]

وقوله تعالى: (وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ).[٣٣]

المتتبع للخطاب القرآني يجد الدقة في الإختيار, فضلًا عن البراعة في توظيف القرائن اللفظية والمعنوية التي تفضي بالمتلقي إلى التوصل إلى مقصدية الخطاب والوقوف على كنه السياق القرآني؛ لأنَ الخطاب القرآني قائم على أساس الترغيب، والنصح, والتبشير, فضلًا عن الترهيب والنهي عن المعاصي, وهذا كله يتطلب وضوح الفكرة, كون القرآن يحمل رسالة للبشرية كافة, بدليل أنَ المتأمل في سياق هذه الآية, يجد الخطاب القرآني يستند إلى النفي في قوله: (لن يؤمن), وهو لإثبات النقيض, بدليل مجيء الاستثناء (إلا من قد آمن), وبهذا الاستثناء يتحقق الرجوع؛

[٣٠] سورة المجادلة: ٨
[٣١] سورة المجادلة: ١٠
[٣٢] التحرير والتنوير: ٢٠٠/٥
[٣٣] سورة هود: ٣٦

لأنَ الخطاب موجه إلى نبي الله نوح (عليه السلام), بعد أن اصابه الغم واعتلاه الحزن, بسبب تكذيب قومه إياه وعدم تصديق رسالته, الأمر الذي اقتضى أن يكون الخطاب بـ (لن) وهو حرف النفي بالمستقبل, وفي ذلك إشارة إلى استمرار قوم نوح (عليه السلام) في التكذيب وعدم الإيمان برسالته, فجاء النفي في قوله: (فلا تبتئس), من باب الإستئناس والتسلية لنوح (عليه السلام), وأنَ الله مهلك القوم الكافرين لا محالة, ثم أردفه بالاستثناء (إلا من قد آمن) من أجل إدخال السكينة في قلب نوح (عليه السلام), وأنَ الذين اتبعوه وآمنوا برسالته لا شك في إيمانهم.[٣٤]

وقوله تعالى: (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ).[٣٥]

في ضوء سياق الآية المباركة, نجد تضافرًا سياقيًا ساهم في إبراز حقيقة إرسال الملائكة إلى قوم لوط, وما هي الرسالة التي يحملونها إليهم؟, بدليل السؤال الذي سبق الآية قوله: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ).[٣٦]

يحمل هذا الإستفهام بعدًا بلاغيًا, كونهم يجهلون الأمر الذي سيق من أجله الملائكة, لذا فالسؤال ينطوي على تعجب؛ لانَ الملائكة لا ينزلون إلى الارض إلا لامر عظيم, لذلك جاء الجواب: (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين), هنا تحول الخطاب القرآني إلى التشويق, لأنَهم يرومون معرفة هؤلاء المجرمين وما شأنهم؟ فجاء الاستثناء الذي ينطوي على رجوع (إلا آل لوط), فرجع لينقض كون اتباع لوط من المجرمين, اما الذين عصوا أمر الله وفعلوا الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد هم الذين خصهم الباري ـ عز وجل ـ بالمجرمين.

ترى التضافر السياقي الكامن في الرجوع والاستثناء, ليؤكد أنَ هؤلاء المجرمين دابرهم الهلاك والاستئصال, لذا جاء الرجوع ليبيَن أنَ أتباع لوط لم يكونوا في معيه هؤلاء, ثم جاء الاستثناء (إلا امرأته), ليبيَن أنَ الله أبقاها في العذاب مع الكفرة الهالكين.

---

[٣٤] ينظر التحرير والتنوير: ١٢/٦٥ ـ ٦٦
[٣٥] سورة الحجر: ٥٨ ـ ٦٠
[٣٦] سورة الحجر: ٥٧

ومن جماليات الخطاب القرآني هو الإسناد الكامن في قوله تعالى: (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين), وهذا هو كلام الملائكة, إذ أسندوا فعل الإرسال إلى أنفسهم, مع أنهم أرسلوا بأمر من الله, ولكنهم ذكروا هذه العبارة لحالهم من القرب والإختصاص بالله تعالى, كما يقول خاصة الملك: " دبرنا كذا, وأمرنا كذا, والمدبر هو الملك لا هم, وإنَما يريدون بذكر هذا الكلام إظهار حالهم من الإختصاص بذلك الملك ".[٣٧]

وما تم ملاحظته أيضًا توظيف لفظة (أجمعين) في قوله: (إنا لمنجوهم أجمعين), فقد جاءت هذه اللفظة متناغمة مع من نجي من آل لوط من العذاب, فكلمة (أجمعين), هنا توكيد زيادة, لدفع الشك من أنَ العذاب سينال آل لوط كلهم من دون استثناء, فجاءت هذه اللفظة لتؤكد أنَ النجاة حاصلة لا محالة لأتباع لوط, وكذلك قوله: (إلا امرأته), من باب الإحتراس, بغية دفع توهم المتلقي أنَ امرأة لوط داخلة ضمن آله, بدليل قوله تعالى: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين).[٣٨]

وقوله تعالى: (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ).[٣٩]

وأيضًا ورود التوكيد في قوله: (إنا لمنجوهم أجمعين), مقرونًا بلام القسم, لدفع الشك من أنَ النجاة لا تشمل أتباع لوط جميعهم, أو قد تشمل بعضًا منهم, لذا جاء التكميل بقوله: (أجمعين).

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ...).[٤٠]

تكمن جمالية النسق القرآني في التكثيف اللغوي والبلاغي, فضلًا عن اللمسات الأخرى التي من شأنها إبراز المعنى المقصود؛ لأنَ الخطاب القرآني يحمل رسالة قائمة إيضاح القصد, وهذا ما

[٣٧] التفسير الكبير: ١٥٣/١٩
[٣٨] سورة التحريم: ١٠
[٣٩] سورة الشعراء: ١٧٠ – ١٧١
[٤٠] سورة سبأ: ٢٠ – ٢١

نلمسه في هذه الآية المباركة, إذ إنَ تضافر الرجوع مع الاستثناءأكدا فاعلية السياق القرآني, بدليل أنَ الباري ـ عزَ وجل ـ قد كشف خيبة ظن إبليس الذي أقسم بقوله: (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)[٤١], حتى أيقن أنَه يستطيع بسلطانه أن يغوي الخلق أجمعين, وذلك بتزيين الباطل لهم والوسوسة في عقولهم, فصدق ظنه فاتبعه نفر من الضالين, لذلك جاء الاستثناء الذي يمثل رجوعًا ونقضًا لهذا الظن, فقال: (إلا فريقًا من المؤمنين), وبذلك خاب ظنه؛ لأنَ هؤلاء المؤمنين بقوا ثابتين على دينهم ولم يتزعزع إيمانهم على الرغم من المغريات والوساوس الشيطانية.

فترى الآية ابتدأت بـ (لقد) وهو يفيد التوكيد, للإشارة إلى قدرة إبليس في الغواية, بدليل توظيف (عليهم), وهي للاستعلاء, وكذلك (الفاء) فـ (اتبعوه), ليشير أيضًا إلى المباشرة في الضلالة والرضوخ لغواية إبليس.

ومن جماليات التعبير القرآني, اختيار المفردات التي تتناغم والمعنى المطلوب, وآية ذلك توظيف لفظة (فريقًا), دلالة إلى قلة الذين ثبتوا على إيمانهم ولم يرضخوا لما زينه الشيطان في نفوسهم, وما يؤكد ذلك ال التعريف في (المؤمنين) التي أفادت الإستغراق, وكذلك (من) هنا جاءت للتبعيض, بغية التنبيه إلى قله هؤلاء المؤمنين, بدليل قوله تعالى: (وما كان له عليهم من سلطان), فالنفي الذي سبق الفعل (كان) أيضًا يفيد الإستغراق[٤٢], وفي ذلك إشارة إلى أنَ إبليس في غوايته لهؤلاء الضالين لم يكن ناتجًا عن تسلط أو إكراه, بل رغبة منهم في العصيان والضلالة, وفي ذلك اختيار لهم " ليظهر حال من هو مؤمن بالآخرة, ويصدق بالثواب والعقاب, بمن هو في شك منها ".[٤٣]

وقوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ).[٤٤]

---

[٤١] سورة ص: ٨٢
[٤٢] ينظر التحرير والتنوير: ١٨٣/٢٢
[٤٣] الإيمان بالجن بين الحقيقة والتهويل: ٨١
[٤٤] سورة المدثر: ٣٨ ــ ٣٩

يتجلى للقارئ أنَ فاعلية الرجوع تكمن في نفي أن يكون أصحاب اليمين الذين آثروا العبادة والتوجه الخالص إلى الله ممن يحبسوا حتى يؤدوا ما عليهم من حقوق, لذا جاء الإستثناء ليؤكد نعم الله على هؤلاء السعداء الذين خلصوا من العقاب, إذ إنَ الخطاب القرآني أكد أنَ كلَ نفس مرهونة عند الله بما كسبت أو بما قدمت, وفي ذلك إشارة إلى جميع الخلق من دون استثناء, فجاء الرجوع في قوله: (إلا أصحاب اليمين), ليبيَن هذه الطائفة مستثناة من ذلك كله.

ومما تجدر الإشارة في هذا السياق تأنيث النفس, لأنَه " لو قصدت الصيغة لقيل: رهين؛ لأنَ فعيلًا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث, وإنَما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم, كأنَه قيل: كل نفس بما كسبت رهن ".[٤٥]

فترى اختيار لفظة (رهن), قد وردت في القرآن بدلالات مختلفة بحسب السياق الذي انضوت تحته.

كقوله تعالى: (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ).[٤٦]

وقوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ).[٤٧]

وكأنَ الرهن قيد للخلق, لا يتخلص منه ما لم يجازى على أي فعل فعله, بدليل قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾).[٤٨]

وقوله تعالى: (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).[٤٩]

تتجسد فاعلية الخطاب القرآني في براعة الاختيار, فضلًا عن تجاذب المفردات العناق مع بعضها, مشكلة نسقًا تركيبًا رائعًا, أضف إلى ذلك القيمة التعبيرية التي ينطوي عليها النص

[٤٥] الكشاف: ٦٥٥/٤, التفسير الكبير: ٧١٥/٣٠
[٤٦] سورة الطور: ٢١
[٤٧] سورة البقرة: ٢٨٣
[٤٨] سورة الزلزلة: ٧ – ٨
[٤٩] سورة الدخان: ٤٠ , ٤١ , ٤٢

القرآني؛ كونه خطابًا للبشرية, فيه دعوة إلى التراحم والرأفة وعمل الخير, ووعيد بالعذاب لمن أصر على كفره وخرج على حدود الله, إذ إنَ يوم القيامة موعد للقصاص من الظالمين, وموعد لبشارة المؤمنين بدخولهم دار القرار.

هذا ما نلمسه في سياق هذه الآية, فهي تنطوي على ترهيب للخلق يوم العرض على الله, فهو ميقات لا شك في حصوله, تجتمع فيه الخلائق للحساب كل على قدر عمله في الدنيا وما تزود للآخرة, يوم لا ينفع القريب, أو الصديق, أو الوالد, أو الأخ, وآية ذلك قوله: (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)[٥٠], لذا جاء الاستثناء ليبيَن أنَ هذا الوعيد لا يشمل المؤمنين, فهم مشفَعون يوم القيامة.

فترى الرجوع قد تجسد في التضافر السياقي, إذ أبان الإستثناء عن نفي أن يكون المؤمنون في زمرة من سيحل بهم العذاب, أو انقطع أملهم بالجنة, فهم غير مشمولين بالعذاب, لذا أكد الإستثناء مصير الأبرار المتقين في قوله: (إلا أصحاب اليمين), وهذا الإستثناء يحمل في طياته احتراسًا؛ لأنَ لو لم يذكر الباري ـ عزَ وجل ـ (أصحاب اليمين) لشمل العذاب الخلق أجمعين من دون استثناء.

ومن جماليات التعبير القرآني, اختيار مفردة (الفصل), وقد أبان الرازي أربعة وجوه:

الوجه الاول: كونه يفصل بين أهل الجنة وأهل النار.

الوجه الثاني: كونه يفصل في الحكم والقضاء بين عباده.

الوجه الثالث: أنَه في حق المؤمنين وحق الكفار.

الوجه الرابع: أنَه يظهر حال كل طائفة منهم, فلا يبقى شك ولا شبهة.[٥١] أي أنَ الباري ـ جل في علاه ـ يفصل بين الخلائق ومنهم من يحمل كتابه بيمنه, وآخرون يحملون كتابهم في شمالهم,

---

[٥٠] سورة عبس: ٣٣ , ٣٤ , ٣٥ , ٣٦

[٥١] ينظر التفسير الكبير: ٦٦٣/٢٧

وفي قوله تعالى: (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ).[٥٢]

وكذلك توظيف مفردة (مولى), ليؤكد نوع الصلة التي تربط الخلائق, وفي هذه المفردة إشارة إلى قرب الصلة, فهو إما قريب في دينه, أو النسيب, أو المعتق, هؤلاء جميعًا على الرغم من قرب صلتهم بالكافر, فهم لا يستطيعون دفع العذاب عنهم, وآية ذلك قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ).[٥٣]

وما تم ملاحظته أيضًا هو تذييل الآية لقوله: (إنَه هو العزيز الرحيم), فجاء التذييل متناغما مع طبيعة الحساب في هذا اليوم, فالباري ـ عزَ وجل ـ عزيز ذو انتقام ورحيم في الذين آمنوا واتقوا.

وقوله تعالى: (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ).[٥٤]

مما لا شك فيه أنَ السياق القرآني مؤطر بحدود معلومة, إلا أنَ الابتعاد عن القصد القرآني يجعله عرضة للتأويلات, وهذا سر إعجاز القرآن, لذلك وجدت المفسرين في هذه الآية ذهبوا مذاهب شتى في تفسير معنى النسب, إلا أنَ السياق القرآني خفف هذه التأويلات, بدليل أنَ المتأمل في هذه الآية يجد تضافرًا سياقيًا كمن في الرجوع والإستثناء, فقد ساهما في دحض ما رسخ في ذهن المشركين من أنَ لله نسبًا مع الجن, أو له بنات منه, لذلك قال: (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ).

فترى التوكيد لم يكن اعتباطًا, بل فيه إشارة إلى علم الجن وإدراكهم تمام الإدراك أنَهم لا نسب لهم مع الله, لذلك علموا أنَ مصير هؤلاء الذين وصفوهم هذا الوصف النار والعذاب, عليه جاء الخطاب القرآني لينقض وينفي هذه التهمة التي ألصقها الكفار عن طريق الرجوع والإستثناء في قوله تعالى: (إلا عباد الله المخلصين), بغية تنزيه عباد الله المخلصين عما يصفه به هؤلاء, فهم في

[٥٢] سورة الواقعة: ٧ ــ ٨
[٥٣] سورة البقرة: ٤٨
[٥٤] سورة الصافات: ١٥٨, ١٥٩, ١٦٠

منأى عن هذه الأقاويل التي لا تمت بصلة إلى حقيقة الخالق ـ جل في علاه ـ بدليل وجود الجملة الإعتراضية (سبحان الله عما يصفون), وهذا الإعتراض إنَما جاء للتنزيه, وآية ذلك, قوله تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).[٥٥]

وقوله تعالى: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ).[٥٦]

ينطوي السياق القرآني على قيمة تعبيرية واعتبارية؛ لأنَ الخلق يظنون أنَ هناك أمورًا يفعلونها هي التي تقربهم من الله, ولم يدركوا أنَ هناك ما هو أرفع درجة وأقوى صلة يجعلهم أكثر قربًا من الله, لذلك نجد هذا الظن واضحًا, فكثير من الناس يتكاثرون بالأموال والأولاد ويعدونها حسبة لله وهي تقربهم من الله, فهم يفتخرون بهذه الكثرة, فاقتضى المقام عن طريق الرجوع والإستثناء بيان حقيقة يغفلها الناس ألا وهي أنَ الإيمان والعمل الصالح والإنفاق في سبيل الله, وتربية الأولاد تربية صالحة على وفق منهج الإسلام, هذه الأمور كلُها تقربهم من الله, فالإثبات بعد النفي توكيد لما تم نقضه.

ومما يؤكد المعنى المطلوب, هو ابتداء الآية بالنفي: (وما أموالكم ولا أولادكم), فاقتضى المقام إثبات حقيقة الأمر, ودحض الفكرة الكامنة في ذهن هؤلاء.

وكذلك الالتفات من الغائب إلى المخاطب: (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا...), وهنا الالتفات " لغرض المبالغة في تحقيق الحق وتنبيه الغافلين إلى سبيل النجاة ".[٥٧]

ومن جماليات التعبير القرآني هو إيجاز الحذف, وذلك للدلالة الثاني عليه, في قوله: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا) فالتقرير: " وما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا ".[٥٨]

---

[٥٥] سورة النحل: ٥٧
[٥٦] سورة سبأ: ٣٧
[٥٧] صفوة التفاسير: ٩٨٥/٢

ومن الأسرار البيانية في القرآن الكريم, هو تقديم الأموال على الأولاد, فقد اقترن ذكر المال مع الاولاد في القرآن أربعة وعشرين موضعًا, اثنان وعشرون منها قدم الأموال على الأولاد, واثنان قدم الأولاد على الأموال[٥٩], بحسب ما يقتضيه السياق القرآني, إلا أننا وجدنا في هذه الآية المباركة قدم الباري ـ عزَ وجل ـ الأموال على الأولاد؛ لأنَ المقام اقتضى هذا التقديم؛ ولأنَ الفتنة بالمال أكثر وأشد, فهو السبب المفضي إلى الشهوات المحرمة, بخلاف الأولاد, فإنَ الإنسان قد يفتن بأولاده ولكن لا يفضي هذا الافتتان إلى معصية الخالق, أضف إلى أنَ السياق القرآني في معرض الحديث عمن أيقن أنَ التكاثر بهما سبيل إلى النجاة والفلاح, لذلك ورد ذكرهما على وفق ما تم عرضه.

ومن جماليات التعبير القرآني الإحتراس في قوله: (إلا عباد الله الصالحين), وهنا جاء الإحتراس لدفع توهم أنَ هذا الظن يشمل الخلق جميعهم, لذا احترس, بغية نفي أن يكون العباد الصالحون من ضمن هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد الخاطئ, ففي الأموال صدقات ونفقات في سبيل الله, وفي الأولاد العون والبر والجهاد في سبيله, فضلًا عن الدعاء لآبائهم بالمغفرة والرحمة.[٦٠]

وكذلك تكرار (لا) النافية بعد العاطفة, إذ إنَ هذا التكرار ينطوي على نكتة بلاغية, وهي " تأكيد تسلط النفي على كلا المذكورين, ليكون كل واحد مقصودًا بنفي كونه مما يقرب من الله ".[٦١]

أضف إلى ذلك اختيار الفعل (تقربهم), هنا القرب ليس مكانيًا بل مجازيًا بجامع التشريف والكرامة.

وقوله تعالى: (إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا).[٦٢]

---

[٥٨] ينظر م.ن: ٩٨٥/٢

[٥٩] ينظر الكهف: ٣٩, مريم: ٧٧, نوح: ٢١, الاسراء: ٦٤, الانفال: ٦٤, المنافقون: ٩ – ٤١ , الحديد: ٢٠, التوبة: ٦٩, سبأ: ٣٥ ...الخ

[٦٠] ينظر التحرير والتنوير: ٢١٧/٢٢

[٦١] التحرير والتنوير: ٢١٥/٢٢

[٦٢] سورة النساء: ١٥٧

تكمن جمالية التعبير في أسلوب التشويق القائم على ترك الأمر للظن أو توقع المتلقي, ومن ثم التصريح, بغية عدم ترك المتلقي متعطشًا لمعرفة ما يروم معرفته, وهذا ما نلحظه في سياق هذه الآية, لأنَ اليهود اعتقدوا أنَهم قتلوا المسيح وصلبوه, ولكن هذا الإعتقاد تحول إلى ظن؛ لأنَهم صلبوا رجلًا شبيهًا بالمسيح رأسًا لا جسدًا, وهذا الأمر شاركهم فيه المسيحيون, فهم بين مؤيد لقتله وصلبه وبين رافض ذلك. لذلك جاء الرد القرآني لينفي هذه الفعلة في تكرار النفي (وما قتلوه), (ولا صلبوه), وهذا كلُه لم يحصل للمسيح (عليه السلام), بل رفعه الله الى السماء.

ومما يؤكد ذلك قول اليهود: (انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله), وهذا الأسلوب على سبيل السخرية والإستهزاء؛ لأنَهم أيقنوا ـ حاشا ـ أنَ المسيح ابن زنى وأمه زانية, وإلا كيف يقولون: (رسول الله).

في ضوء ذلك جاء الخطاب القرآني ليبطل دعواهم عن طريق الإستثناء في قوله: (إلا اتباع الظن), ليؤكد أنَ ما تخيلوه ليس له أساس من الصحة, بل هو مجرد ظن, بغية إقناع أنفسهم أنَهم قتلوه وصلبوه.

وقوله تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا).[٦٣]

يدعو السياق القرآني إلى التزام الذوق والقيم النبيلة, لأنَ الإنسان معرض للغفلة أو قل الجهل بأمور دينه, فيكون عرضة للخطأ والزلل, وهذا ما حصل لأهل الجاهلية, فقد جمعوا بين الأختين, وتزوجوا امرأة أبيهم بعد وفاته, وهذا ما نص عليه الخطاب القرآني: (إلا ما قد سلف), كي يبيَن نفيه لهذه الممارسات التي جب عنها الإسلام, فترى الرجوع تجسد في نفي هذه العادة الجاهلية وعدَها أمرًا فاحشًا وقبيحًا قد تناهى في القبح لاسيما في اعتلاء الابن زوج أبيه بعد وفاته, لذا

[٦٣] سورة النساء: ٢٢

جاء النفي قبل الاستثناء, بغية تأكيد حرمة نكاح زوجات الآباء إلا ما قد سلف, وفي ذلك إشارة إلى تجنبه في زمن الإسلام, لذلك تعلق النهي بالمستقبل (لا تنكحوا), وفي ذلك إشارة إلى ايجاد الحدث في المستقبل " وهذا المعنى يفيد النهي عن الاستمرار عن نكاحهن إذا كان قد حصل قبل ورود النهي ".[٦٤]

وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا).[٦٥]

ثمة أمور دعا إليها الإسلام منها الكف عن أكل أموال الناس بالباطل, كونه يمثل إثمًا كبيرًا لم تبحه الشريعة الإسلامية؛ لأنَه يسبب ضررًا كبيرًا للآخرين, فضلًا عن خلق العداوة والبغضاء بينهم, لذلك لم يحدد الخطاب القرآني أمرًا معينا, بل اكتفى بلفظة (الباطل), وتشمل هذه الكلمة أنواع الحرام كلها من خيانة, وغصب, وربا, وقمار... إلخ, إذ إنَ هذه الأشياء تكون سببًا في الكسب الحرام بخلاف التجارة والأعمال التي يرتضيها الشرع, لذلك جاء الرد القرآني لينقض هذا الكسب الحرام, وحدد منفذًا واحدًا هو الكسب الشرعي عن طريق التجارة التي أحلها الله والتي يتخللها التراضي بين البائع والمشتري.

فترى جمالية التضافر السياقي قد تجسد في نفي الرجوع والإستثناء, إذ أكد نقض الكسب الحرام, وضرورة أن يكون الكسب مباحًا لا إثم فيه.

هنا سؤال يطرح, لم خص التجارة بالذكر, علما أنَ هناك منافذ شرعية للكسب الحلال, في مثل: الإرث, والنفقة, أو الصدقة؛ لأنَ " أسباب الرزق أكثرها متعلق بها "[٦٦]. إذ إنَ كثيرًا من الناس لا يحصلون على إرث أو نفقة, ولكنهم باستطاعتهم العمل لأجل العيش.

وقوله تعالى: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).[٦٧]

---

[٦٤] التحرير والتنوير: ٢٩١/٤
[٦٥] سورة النساء: ٢٩
[٦٦] الكشاف: ٥٠٢/١

مما تجدر الإشارة إليه أنَ الخطاب القرآني ينطوي على أساليب عدة, لأجل تحقيق المقصود والوصول إلى الهدف, وهذا ما تم ملاحظته في سياق هذه الآية, إذ إنَ إبليس أقسم بإغواء البشرية, متخذاً حجة واهية تمثلت بادعائه أنَ الله أضله ولم يرشده إلى طريق الهداية, لذا فمن هذا المنطلق عمد إبليس نكاية بالله إلى إغواء الناس عن طريق تزيين المعاصي والآثام لعباد الله, فمن ثبت على إيمانه لم يتمكن الشيطان من إغوائه, أما من كان إيمانه ضعيفًا تمكن الشيطان منه, هنا جاء الرجوع ليبيَن نفي قدرة إبليس على إغواء من استخلصه الله بعبادته ولم يستسلم لغوايته, وآية ذلك قوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)[٦٨]؛ لأنَ الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين, فعملية التسلط عليهم سهلة لا مشقة فيها.

ويعلل الطاهر بن عاشور (رحمه الله) سبب إطلاق لفظة (الغاوين), قائلا: " من باب إطلاق اسم الفاعل على الحصول في المستقبل بالقرينة؛ لأنَه لو كان غاويًا بالفعل لم يكن لسلطان الشيطان عليه فائدة, وقد دلَ على هذا المعنى تعلق نفي السلطان بجميع العباد, ثم استثناء من كان غاويًا, فلما كان سلطان الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاويًا ".[٦٩]

تكمن فاعلية التضافر السياقي في الرجوع والاستثناء, فضلًا عن القسم المكرر (لأزينن) , (لأغوينهم), وفي ذلك دلالة على إصرار الشيطان على غواية الخلق أجمعين, نكاية لما حصل له من ذل وطرد من رحمة الله, بدليل أنَه دخل في ميدان التحدي مع الله, وهو قادر على هلاكه, إلا أنَ الباري ـ عزَ وجل ـ أمهله إلى يوم البعث تنفيذًا لطلبه في قوله: (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ).[٧٠] فقال له الله: (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ).[٧١]

---

[٦٧] سورة الحجر: ٣٩ ـ ٤٠
[٦٨] سورة الحجر: ٤٢
[٦٩] اين الهامش؟؟
[٧٠] سورة الحجر: ٣٦
[٧١] سورة الحجر: ٣٧ ـ ٣٨

خلاصة القول إنَ التضافر السياقي الكامن في فني الرجوع والإستثناء ساهم في إيضاح القصد, وأبان عن إثبات المعنى المطلوب بعد حصول النفي, ومما تم ملاحظته أنَ الإستثناء لا يأتي إلا بعد النفي, بغية تعزيز المعنى وترسيخه في ذهن المتلقي.